يافا مدينة تختصر وطناً

محمود يزبك*

يافا ما قبل النكبة: مدينة تنبض بالحياة

تبدأ قصة مدينة يافا في العصر الحديث بحادث أليم وجريمة ارتكبها جيش الاحتلال الفرنسي بقيادة نابوليون بونابرت حين غزاها واحتلها لفترة قصيرة في ٦ آذار / مارس ١٧٩٩. فمدينة يافا لم تستسلم لجيش الغزاة، وحين دخلها الجيش الفرنسي عاث فيها خراباً ودماراً وهجّر سكانها ونهبها. وتصف المصادر المعاصرة المذبحة البشعة التي ارتكبها جيش بونابرت ضد أهل مدينة يافا، ويقدّر عبد الرحمن الجبرتي، كاتب اليوميات المصري المعاصر، عدد اليافيين الذين قتلهم الجيش الفرنسي بأربعة آلاف شخص.[١]

بدأت يافا منذ أواسط القرن الثامن عشر بالتطور، وشرعت تأخذ مكانتها التجارية شرقي البحر الأبيض المتوسط، وحين غزاها بونابرت، كان فيها مجموعة كبيرة من التجار الذين جرى نفيهم إلى مصر ونُهبت مخازنهم.

وبعد انسحاب الفرنسيين من يافا رممت السلطات العثمانية المباني التي دمرها الفرنسيون، وخصوصاً قلعة المدينة، كي تعيد الطمأنينة إلى أهلها وتقنعهم بالعودة إلى مدينتهم.[٢] وحين أخذت يافا تتعافى من الغزو النابليوني، عانت المدينة جرّاء صراع على السلطة بين أحمد باشا الجزّار ووريثه والي عكا سليمان باشا، وبين حاكم يافا محمد أبو المرق.

انتهى هذا الصراع في سنة ١٨٠٥، حين تولى محمد أبو نبّوت حكم مدينة يافا. وفي حقيقة الأمر، فإن أبو نبّوت أعاد الهدوء والطمأنينة إلى المدينة، ووضعها في مسار التطور والتغير لتصبح من أهم مدن الساحل السوري عامة، والفلسطيني خاصة.

تولى أبو نبّوت حكم مدينة يافا حتى سنة ١٨١٩،[٣] وهذه فترة طويلة نسبياً، وسعى لرفع مكانته الإدارية من متسلّم المدينة ليصبح والياً، ولتغيير مكانة يافا الإدارية من متسلميّة تابعة لعكا كي تصبح مركزاً لولاية قائمة

* رئيس قسم تاريخ الشرق الأوسط في جامعة حيفا.

بذاتها وتابعة لإستانبول مباشرة.

وحصيلة الأمر أن يافا شهدت في عهد أبو نبّوت تغيّراً واضحاً في معالمها العامة، وفي مظهرها وأبنيتها وزخرفتها التي ما زال العديد منها ماثلاً للعيان حتى يومنا هذا، على الرغم من الدمار الذي تعرضت له المدينة لاحقاً، وخصوصاً في أعقاب النكبة.

ومن أشهر الآثار العمرانية لأبي نبّوت[٤] نذكر:

١ ـ المقبرة الإسلامية التي أقامها خارج أسوار المدينة، والتي عُرفت أرضها باسم أرض البريّة.[٥]

٢ ـ سبيل المحمودية المعروف أيضاً باسم السبيل الجوّاني، وهو من روائع الفنون العثمانية.

٣ ـ سبيل الشفاء ويُعرف باسم السبيل البرّاني، وقد اشتُهر لاحقاً باسم سبيل أبو نبّوت، القائم على الطريق ما بين يافا والقدس.[٦]

٤ ـ إعادة بناء جامع يافا الكبير المعروف أيضاً باسم المحمودي، إحياء لذكرى ابنه محمود.[٧]

٥ ـ إنشاء مكتبة ومدرسة جامع يافا الكبير.[٨]

٦ ـ ترميم الطواحين السبع عند رأس العين ليُصرف ريعها على طلاّب المدرسة والمكتبة.[٩]

٧ ـ تجديد وتحصين أسوار المدينة، وحفر خندق أحاط بالمدينة من جهة البرّ.[١٠]

٨ ـ إنشاء الأسواق داخل أسوار المدينة وبعض البيّارات خارج الأسوار.

٩ ـ إنشاء حوض للسفن وكاسر أمواج في الميناء.

لقد شجّع الأمن والعمران اللذان شهدتهما مدينة يافا السكان على العودة إليها، بل ظهور العديد من المهاجرين الذين قدموا إلى المدينة أيضاً. وفي أعقاب ذلك ازداد العمران في المدينة وأخذت بالاكتظاظ، وتكونت في المدينة، داخل أسوار يافا، مجموعة من الحارات اشتُهر منها: القلعة؛ الشيخ إبراهيم؛ النقيب؛ البرج؛ النصارى؛ الروم؛ الأرمن؛ الفلاحين؛ الطابية؛ السدرة؛ المراح؛ الرملية؛ السيلوية؛ بيبي؛ الزاوية؛ الشيخ رسلان البكري؛ الأشرفية؛ الحشاش؛ الزنط؛ الشيخ جمعة.[١١]

وتشير المصادر إلى إحياء المرافق الاقتصادية التي كانت في المدينة قبل احتلال نابليون، وبينها ثلاث مصابن، وثلاث معاصر لزيت السيرج،[١٢] وجرى إنشاء مصبنتين جديدتين في سنة ١٨١٠.

وفي هذه الأثناء بدأت دول أجنبية تعيّن قناصل لها في يافا لرعاية مصالحها التجارية المتزايدة.

برتقال يافا

منذ مطلع القرن التاسع عشر تبلورت معالم يافا الاقتصادية في فرعين رئيسيين: الميناء بصفته معبراً للداخل الفلسطيني، وزراعة البيارات وتجارة الحمضيات والبرتقال بصورة خاصة. وأظهر أبو نبّوت اهتماماً خاصاً بكلا الفرعين، وامتلك أسطولاً كبيراً من "الفلوكات" (القوارب) التي نقلت البضائع والمسافرين من وإلى رصيف الميناء، إلى السفن الكبيرة الراسية في عرض البحر في المياه العميقة. كما شجّع الاستثمار في زراعة البيارات التي أخذت تمتد من خارج أسوار المدينة لتغطي مساحات كبيرة في السهول الممتدة في اتجاه مدينتَي الرملة وغزة.[١٣]

وكلما ازدادت أهمية برتقال يافا في تشكيل اقتصاد المدينة، تركزت

الاستثمارات بيد أغنياء التجار المقتدرين على إدارة شبكات تجارية معقدة. وقد امتدت فروع هذه الشبكات التجارية ما بين موانئ دمياط ويافا وإستانبول. وامتلك تجار برتقال يافا في موانئ البحر الأبيض المتوسط مخازن كبيرة، واستخدموا عدداً من الوكلاء لرعاية مصالحهم التجارية في تلك الموانئ.

شكلت بيّارات البرتقال أهم استثمارات تجّار يافا، وكان هذا عادة، استثماراً مربحاً جداً، لكنه استنزف أموالاً طائلة قبل إعطاء المردود الأول. وكي تبدأ البيّارة بإعطاء مردود مادي اضطر المستثمر إلى امتلاك قطعة أرض كبيرة وإنشاء نظام ريّ مكلف جداً، شمل حفر بئر وإنشاء بركة كبيرة لجمع الماء وحفر قنوات لنقل المياه إلى الأشجار. واستخدم صاحب البيارة ما بين ثلاثة إلى خمسة بيّارين طوال أيام السنة. وخلال فترة قطف الثمار تمّ استخدام عدد كبير من العمال. وكي يجني المستثمر الربح كان لا بدّ له من إنشاء شبكة تسويق متطورة. ووجدت حمضيات يافا طريقها إلى الأسواق المصرية، ويعود نجاح هذا التسويق إلى خبرة وكفاءة الشبكات التجارية والوكلاء في مصر.

واعتمد تجّار البرتقال وأصحاب البيارات على علاقاتهم المحلية لحماية استثماراتهم الكبيرة في فرع زراعة البرتقال وتجارته. وفي بدايات القرن التاسع عشر تركزت أغلبية بيّارات تجّار يافا على مقربة من نهر العوجا، بعيداً عن المدينة، وبجوار المناطق الواقعة تحت سيطرة قبيلة أبو كشك، أقوى قبائل منطقة يافا، والتي شغلّت طواحين الماء الواقعة بمحاذاة مجرى النهر. وفي سبيل تسيير أعمالهم، طوّر تجّار يافا مصالح اقتصادية مع زعماء القبيلة، واستخدموا قوافل من جمالهم لنقل البرتقال من البيّارات إلى الميناء، كما استخدموا عدداً من أفراد القبيلة لحراسة تلك البيّارات.[١٤]

ومع بدء سيطرة إبراهيم باشا على فلسطين في سنة ١٨٣٠ وصل حكم الأسر المملوكية في فلسطين، والتي تتابعت بعد الجزار وضمنها أبو نبّوت في يافا، إلى نهايته. وبعكس الغزو النابليوني الذي جلب الدمار والمذابح ليافا، فإن قوات إبراهيم باشا لم تؤذ لا البنية التحتية ولا سكان المدينة. وخلال فترة الحكم المصري (١٨٣٠–١٨٤٠)، ازدادت أعداد المهاجرين إلى يافا، وانضم عدد كبير من الفلاحين المصريين إلى مَن سبقوهم من فلاحين مهاجرين إلى المنطقة. وكلما ازداد عدد البيّارات واتسعت مساحاتها، ازداد الطلب على العمّال الزراعيين، الأمر الذي جذب المهاجرين المصريين، وظهرت قرى جديدة خارج أسوار البلدة القديمة، سكنها بداية هؤلاء المهاجرون، ثم انضم إليهم آخرون فيما بعد من جميع الأرجاء، وأُطلق عليها اسم السكنات. وأشهر هذه السكنات كان: سكنة العبيد، وسكانها، في معظمهم، قدموا من السودان؛ سكنة إرشيد شمالي البلدة القديمة،[١٥] وبعد هدم أسوار المدينة عُرفت بحارة إرشيد؛ سكنة العجمي؛ سكنة المسلخ؛ سكنة الجبلية؛ سكنة أبو كبير؛ سكنة درويش (أبو طه)؛ سكنة الحلوى؛ سكنة العراينة؛ سكنة الدنايطة؛ سكنة تركي؛ سكنة السبيل؛ سكنة الهريش؛ سكنة المطرية؛ سكنة أبو رفاعي؛ سكنة المنشية؛ سكنة العزم؛ سكنة حمّاد؛ سكنة صميل؛ سكنة تل الريش؛ سكنة كرم التوت؛ سكنة الغزازوة. وأقام في معظم هذه السكنات عمال اعتاشوا من العمل في البيارات والأعمال المتعلقة بتجارة البرتقال، ومع مرور الزمن أصبح بعضها من أحياء يافا،

وقد دمرتها دولة إسرائيل بعد النكبة ولم تُبق منها أثراً.

بعد رحيل الحكم المصري عن فلسطين في سنة ١٨٤٠ أصبح برتقال يافا منتوجاً تسويقياً أساسياً جرى تصديره غالباً إلى السوق المصرية وأسواق الأناضول، وخصوصاً إستانبول. إن التوسع السريع لهذه الزراعة نتيجة الطلب المتزايد على برتقال يافا قاد إلى تدفق كبار المستثمرين وكبار الأغنياء من الداخل الفلسطيني وأنحاء بلاد الشام كي يستثمروا أموالاً طائلة في هذا القطاع.

ومنذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر برز في هذا المجال مستثمرون انتموا إلى عائلات كبار التجار في نابلس والقدس، وأسسوا فروعاً لهم في يافا. وانضم إلى هذا الفرع أيضاً العديد من المهاجرين المسيحيين، وخصوصاً من لبنان، وأصبحوا من أهم المستثمرين في إنشاء البيّارات وتجارة الحمضيّات. وامتدت بيّارات برتقال يافا فوق مساحات شاسعة من أراضي اللواء شرقاً، حتى ما بعد مدينة الرملة.

وحتى سبعينيات القرن التاسع عشر استمر المستثمرون في السكنى داخل أسوار مدينة يافا، وأداروا استثمارات في فروع تجارية أُخرى. وعادة ما كان المستثمر في قطاع البرتقال ينتظر ما بين ٧ و٨ أعوام قبل أن تؤدي البيارة أرباحاً دائمة.[١٦]

استهلكت زراعة البرتقال مبالغ طائلة لتجهيز نظام الريّ، لأن شجر البرتقال بحاجة دائمة إلى الري خلال أشهر الصيف. وقد توفرت المياه في منطقة يافا طوال أيام السنة من مصدرين: من نهر العوجا، ومن المياه الجوفية. ولسحب المياه الجوفية كان يتم حفر بئر في أرض البيارة يتراوح عمقها ما بين ٣ و٢٠ متراً، وكان نظام السقي يشمل جهازاً لسحب الماء عُرف باسم الساقية ويديرها عادة جمل أو حيوان آخر. وبعد أن تسقط مياه الساقية في بركة لتخزين الماء، يتم سحب الماء من البركة بواسطة قنوات تكون قد حُفرت في جميع أنحاء البيّارة، ثم تسيل المياه من هذه القنوات إلى حفرة صغيرة كانت تحيط بكل شجرة. ومن الواضح أن إقامة نظام ريّ كهذا وصيانته خلال العام كانتا تتطلبان مبالغ طائلة وعدداً كبيراً من العاملين. علاوة على ذلك، كان صاحب البيارة يصرف مبالغ كبيرة لتعشيب البيارة وإبعاد الآفات الزراعية عنها.

وبما أن البرتقال كان منتوجاً تسويقياً ومعداً للتصدير إلى الأسواق العالمية، فإنه كان لا بدّ من إنشاء البيارات بالقرب من الميناء لنقل المنتوج بسرعة من البيارة إلى القوارب، وذلك بخلاف الصابون أو زيت الزيتون، لأن للبرتقال مدة انقضاء أقصر كثيراً.

وحين ننظر إلى المادة الإحصائية المتوفرة بشأن تصدير البرتقال منذ أواسط القرن التاسع عشر، نرى أنه في سنة ١٨٥٦ جرى تصدير نحو ٢٠ مليون حبة برتقال.[١٧] وفي سنة ١٨٧٣ بلغ عدد بيارات البرتقال التابعة ليافا ٤٢٠ بيّارة أنتجت نحو ٣٣,٣ مليون حبة برتقال، وقد استهلكت السوق المحلية سدس هذه الكمية، بينما تم تصدير الباقي إلى مصر وآسيا الصغرى.[١٨] ومنذ سنة ١٨٧٥ صدّرت يافا كميات كبيرة من البرتقال إلى أوروبا (فرنسا؛ ألمانيا؛ النمسا؛ روسيا)، وهذا التصدير إلى أوروبا، أي إلى المسافات البعيدة، ازداد بشكل ملحوظ حين بُدئ بتغليف البرتقال وتعبئته في صناديق خشبية للحفاظ عليه خلال عملية النقل المعقدة.

تغليف البرتقال وتعبئته في صناديق خشبية (١٨٩٠)

المصدر: Library of Congress

وعلى الرغم من هذه التحسينات، فإن أنواع البرتقال لم تكن كلها ملائمة للتصدير. فالبرتقال الشموطي الذي يشبه شكل البيضة، وذو القشرة السميكة، كان ملائماً للتصدير والنقل لمسافات طويلة أكثر من غيره، أمّا البرتقال الأصغر حجماً، والمعروف بالبلدي، فاستُهلك معظمه في السوق المحلية. وفي سنة ١٨٨٠ قُدّر إنتاج يافا بـ ٣٦ مليون حبّة برتقال.[١٩]

وفي تقرير للقنصل البريطاني من يافا في سنة ١٨٨١، نجد أنه لاحظ أن الاستثمارات في بيّارات البرتقال تُعتبر أكثر الاستثمارات ربحاً ودخلاً.[٢٠] وفي بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر، قدّر موظفو القنصلية الأميركية في يافا عدد البيّارات حول يافا بـ ٥٠٠ بيّارة، وعدد أشجارها بما لا يقل عن ٨٠٠,٠٠٠ شجرة.[٢١] وخلال ثلاثة عقود (١٨٥٠ – ١٨٨٠) تضاعفت أرض البيارات حول يافا أربع مرّات.[٢٢]

وبما أن ميناء يافا كان ميناء التصدير الوحيد لوسط فلسطين وجنوبها، فقد تأثرت مدينة يافا بازدياد حجم التجارة الخارجية، وبموجات الحجاج القادمين إلى القدس، وأصبح مطلب تطوير الميناء، وتطوير وسائل الاتصال مع القدس، على

نقل صناديق البرتقال بالفلوكات من الميناء إلى السفن البخارية

رأس أجندة التجّار في يافا، وحكومتها المحلية والقناصل الأجانب.

ومع النمو السريع لدورة رأس المال وعبور البضائع ونمو حركة المسافرين في سبعينيات القرن التاسع عشر وثمانينياته، فإنه لم يعد في الإمكان التغاضي عن إنشاء أنظمة تشغيل جديدة لخدمة الميناء.[٢٣] وفي سنة ١٨٦٤ أنشأت شركة فرنسية في الميناء فناراً عصرياً، وبادرت الحكومة العثمانية إلى إجراء بعض التحسينات في مرسى السفن،[٢٤] لكن هذه الخطوات لم تعد كافية.

وإزاء عجز الحكومة، تداعى عدد من رجال الأعمال اليافيين وأقاموا جمعية محلية، وابتاعوا في سنة ١٨٧٥ في مرسيليا قاطرة بخارية صغيرة أطلقوها في ميناء يافا لتسهيل الحركة والاتصال ما بين اليابسة والسفن الراسية في عرض البحر.[٢٥]

ومنذ خمسينيات القرن التاسع عشر، توالت طلبات تجّار يافا والقدس من الحكومة المحلية لحثّها على إنشاء طريق عامة بين المدينتين.[٢٦] وفي سنة ١٨٦٧، وبعد اقتناع الحكومة المركزية بأهمية ذلك، بدأت بمشروع إنشاء الطريق الذي افتُتح رسمياً في سنة ١٨٦٨.[٢٧] ومنذ تلك السنة بدأت العربات تسير يومياً على هذه الطريق، وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر سارت على هذه الطريق ما بين ٣٠ و٤٠ عربة لنقل المسافرين.[٢٨] وفي الوقت نفسه ازدادت طلبات المستثمرين لإنشاء خط سكة حديد بين يافا والقدس، وبُدئ العمل به في سنة ١٨٩٠.

اعتمد اقتصاد مدينة يافا في معظمه على الاستيراد والتصدير، وعلى الأشغال المتعلقة بحجاج بيت المقدس، ومنذ أواسط القرن التاسع عشر ازدادت أهمية هذه الفروع، وشارك أوروبيون أيضاً في تشغيل هذه الأعمال وإدارتها.[٢٩]

أمّا الإنتاج الزراعي لريف يافا، وخصوصاً بيارات البرتقال وإدارة هذا المنتوج وتحضيره للتصدير، فكان من أهم مصادر اقتصاد مدينة يافا. ومنذ أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر أولت الاستثمارات الصهيونية اهتمامها أيضاً لفرع بيّارات البرتقال. وتشير تقديرات من سبعينيات القرن التاسع عشر إلى أن نحو ٥٠٠٠ شخص من سكان يافا عملوا في فرع البيّارات خلال موسم قطف البرتقال وتغليفه وتعبئته. وإلى جانب هؤلاء كان هنالك نحو ٣٠٠٠ من العمال الدائمين الذين عملوا في البيّارات على مدار العام،[٣٠] وقد اكتسب المتمرسون من هؤلاء صفة البيّاريّ.

إن النمو المستمر للتجارة عامة، ولفرع البرتقال خاصة، أنعش يافا وزاد في تطورها. فبينما كانت المدينة محاطة بأسوار وخندق وذات بوابة واحدة، بادر كبار التجار، ومنذ أواسط القرن التاسع عشر، إلى إنشاء بيوتهم الفاخرة داخل بياراتهم التي أحاطت بأسوار المدينة، والتي امتدت على الطرق الرئيسية الواصلة بالقدس وغزة ونابلس والرملة. وبضغط من التجار بصورة خاصة، وافقت الحكومة المحلية على فتح بوابة أُخرى في أسوار المدينة. وبعد خمسة أعوام هدمت الحكومة جزءاً من السور، وفي سنة ١٨٧٤ أزالت جميع الأسوار والدفاعات التي أحاطت بالمدينة وباعت حجارتها لإنشاء الأبنية التي أقيمت على امتداد شارع الحلوة الذي أُنشئ في سنة ١٨٧٥، والذي شكّل موقع السور والخندق حتى ذلك الحين، وقد أصبح هذا الشارع المركز التجاري الجديد لمدينة يافا. وحتى ذلك الحين وُصفت مدينة يافا

بمسرح يوناني كونها مبنية على تله تنحدر بشدة نحو البحر. ولم تمر إلاّ أعوام قليلة منذ إزالة الأسوار حتى تغيّر شكل المدينة، فقد أخذت تمتد نحو الشرق على الأرض المنبسطة تجاه البّيارات. وكلما اتسعت المدينة شرقاً، ازداد امتداد بيّاراتها نحو مدينة الرملة شرقاً.

وكان يملك معظم بيّارات البرتقال مستثمرون من سكان المدن، وهذه البيارات شكلت مصدراً مربحاً. والفارق الأساسي بين أصحاب البيارات ما قبل وما بعد أواسط القرن التاسع عشر، أن أصحاب البيارات القديمة لم يمارسوا تجارة البرتقال بأنفسهم، وإنما كانوا يبيعون منتوجهم للتجار. أمّا أصحاب البيارات الجديدة فكانوا في الأغلب تجاراً، واعتبروا البيّارة واحداً من مجمل استثماراتهم، وفرعاً آخر من فروع تجارتهم.

ولزيادة أرباحهم وتسريع تسويق منتوجهم، طوّر المالكون الجدد شبكات تجارية معقدة. وبدأت هذه الشبكة في البيارة نفسها حيث احتاج صاحب البيارة إلى خبير لإدارة شؤون البيارة وصيانتها، وتشغيل عمّال للقطف، وآخرين للتغليف، وفريق آخر للتعبئة في صناديق خشبية لحماية البرتقال خلال عملية النقل للمسافات البعيدة.

كان تجار البرتقال والمستثمرون في بيّارات يافا من أكبر أصحاب رؤوس المال في المدينة، وكانوا من أوائل المبادرين إلى استيعاب تقنيات جديدة لزيادة أرباحهم وإنتاجهم، وقد ساهموا كثيراً في تطوير الاقتصاد الفلسطيني وتحديثه، وفي نقل التقنيات العصرية. وكانت تقنية أنظمة الريّ الحديثة من أولى التقنيات التي تمّ استيعابها في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، فقد ذكر تقرير رسمي من سنة ١٨٩٠ أن ٦٠ محركاً بخارياً لسحب الماء عملت بكامل طاقتها في بيارات يافا.[٣١] وعلى الرغم من التكلفة العالية للمحركات البخارية، فإن الطلب عليها ازداد بعد انفتاح أسواق جديدة للبرتقال.

محرّك بخاري لسحب الماء في إحدى بيارات يافا، بداية القرن العشرين

المصدر: Library of Congress

وزيادة الطلب مع نسبة الربح العالية شجعت المستثمرين الأغنياء على زيادة استثماراتهم في هذا المجال. وتشير التقارير إلى أن منطقة البيارات المحيطة بيافا اتسعت من ٧٥٠٠ دونم في سنة ١٨٩٠ إلى ١٢,٠٠٠ دونم في سنة ١٩٠٤، وإلى أكثر من ٣٠,٠٠٠ دونم في سنة ١٩١٤. وبموازاة ذلك كان ارتفاع عدد صناديق البرتقال المصدرة من يافا مثيراً جداً: من ٢٦٠,٠٠٠ صندوق في سنة ١٨٩٥ إلى ٥٠٠,٠٠٠ في سنة ١٩٠٥، ثم قفز إلى ١,٥ مليون في موسم ١٩١٣/١٩١٤، ومنها ١,٢٠٠,٠٠٠ صندوق، أي ٨٠٪ جاءت من البيّارات التي كانت ملكية عربية، والباقي كان ملكية القطاع الألماني / التمبلري أو اليهودي.[٣٢]

مظاهر من الحياة الثقافية والاجتماعية في يافا

"يا بتروبنّي يا بتطلقني"

انعكس موقع يافا الاقتصادي في مجمل مجالات الحياة في المدينة، وخصوصاً في النواحي الاجتماعية والثقافية. وشكلت زيارة وموسم النبي روبين مظهراً وموروثاً اجتماعياً وثقافياً عكس مدى الانفتاح الاجتماعي والثقافي ليافا ما قبل النكبة. ولم تكن صدفة أن تصبح أكثر المقولات شهرة وارتباطاً بتراث المدينة، المقولة النسوية "يا بتروبنّي يا بتطلقني"، أي أن تشترط الزوجة على زوجها الخيار ما بين المشاركة في احتفالات النبي روبين، وبين الطلاق.

ومقام النبي روبين يقع بالقرب من مصب نهر روبين جنوبي مدينة يافا، وكان لهذا المقام موسم، أي زيارة جماعية في وقت محدد من العام ولمدة معينة. والمثير في الأمر أن موسم روبين أصبح لازمة من لوازم الحياة الاجتماعية كلما تحسنت الأوضاع الاقتصادية في المدينة، وكان هذا الموسم يمتد على مدار شهر كامل يتوافق موعده مع نهاية قطف البرتقال الذي يصادف عادة خلال أيلول / سبتمبر. وتشير المصادر إلى أن الآلاف من سكان يافا شاركوا سنوياً في هذا الموسم الذي اكتسب في الموروث الثقافي صفة مصيف روبين. وخلال فترة الموسم كان الأهالي ينصبون آلاف الخيام فوق الأراضي الرملية المحيطة بمقام النبي روبين بالقرب من شاطئ البحر وضفة النهر، وفي حقيقة الأمر فإن الزوّار أو المصطافين كانوا، ولشهر كامل، يقيمون مدينة خيام موقتة يصل عدد سكانها إلى ما بين ثلاثين وخمسين ألفا. وخلال فترة موسم روبين كانت مدينة يافا تصبح ولشهر كامل فارغة من أكثر سكانها الذين كانوا يذهبون للاصطياف على ضفاف روبين.

وخلال موسم روبين كانت الأسواق تقام لجميع أصناف البضائع، فضلاً عن المقاهي والمطاعم، وأماكن الترفيه الكثيرة. وفي هذا الموسم كانت الفرق المسرحية تعرض عروضها، وبعض هذه الفرق كان فرقاً محلية، وقد جاءت فرق مسرحية من بيروت ودمشق والقاهرة كي تقدم عروضها للمصطافين. وما يلفت النظر أن هذه العروض كانت تقدَّم بالتتالي وبالتناوب للرجال وللنساء على حد سواء، وكان المعلنون في عدة إعلانات للعروض المسرحية يعلنون أوقات العرض الخاصة بالنساء والرجال. ومنذ ثلاثينيات القرن العشرين بدأ عرض أفلام سينمائية في الهواء الطلق لإمتاع المصطافين وتسليتهم. علاوة على ذلك شارك في موسم روبين

مصيف روبين: صورة من ثلاثينيات القرن العشرين
المصدر: Library of Congress

مشاهير المطربين من مصر ولبنان وأنحاء فلسطين، الذين جاؤوا بصورة خاصة لإحياء احتفالات روبين.

وقدّم موسم روبين للنساء أكثر من غيرهن فرصة للتحرر ولو موقتاً من الأطر الاجتماعية والثقافية التي حصرتهم داخل "أربعة جدران"، وللخروج إلى الفضاء العام والمشاركة في نشاط ترفيهي مختلط ما بين الجنسين، ومقبول اجتماعياً. وهذا الاشتياق، وانتظار الموسم سنوياً، شغلا بال العديد من نساء يافا، وقد عبّرت عن ذلك جيداً السيدة سلوى أبو الجبين في مذكراتها.[٣٣]

وما يجب تأكيده هنا هو أن موسم روبين الذي كان في بداياته موسماً دينياً تغيّر طابعه الاحتفالي ليصبح شعبياً، وكان الطابع الديني فيه ثانوياً. وهكذا أصبح موسم روبين بالتدريج موسماً ليافا، الأمر الذي سمح للمسيحيين والمسلمين بالمشاركة فيه والاستمتاع بأجوائه الترفيهية كونهم أبناء مجتمع واحد ومدينة واحدة، رجالاً ونساء.

والطبيعة المدنية / العلمانية لقضاء الرجال والنساء أوقاتهم في فضاء روبين، عكست التغيّر الاجتماعي للمجتمع المدني الفلسطيني عامة، ولمجتمع يافا خاصة، والذي بدأ منذ أواخر العهد العثماني. إن رغبة الناس الجادة في الراحة، والتحرر الموقت من رتابة الحياة اليومية في المدينة ومطالبها وضغوطها، واللجوء إلى عطلة صيفية طويلة يجددون بها أنفسهم ونشاطهم بالقرب من شاطئ البحر وضفة النهر، تشير أكثر من أي شيء آخر إلى مظاهر الحياة العصرية والمدنية التي عاشتها يافا قبل النكبة. وحيث بقيت يافا أيام الانتداب مدينة عربية لا مختلطة،

فإنها قدمت نموذجاً حياً لمعاني العصرنة والتمدن والعالمية في المجتمع الفلسطيني ما قبل سنة ١٩٤٨.[٣٤]

بعد سنة النكبة انقطع موسم النبي روبين بعد أن تعرضت يافا والرملة واللد وألويتها لتطهير عرقي، وجرى طرد أكثر من ٩٧٪ من سكانها إلى خارج حدود الوطن. وقد استولت مجموعة يهودية على مقام روبين نفسه وهوّدته، أمّا المسجد المجاور فتهدّم وما زال بعض آثاره ماثلاً للعيان.

مظاهر ثقافية

الميناء والقطار ربطا يافا بالعالم الخارجي والداخلي، علاوة على تنوّع الثقافات واللغات بين سكانها الذين رفدوها بهجرة لا تنقطع. ومنذ أواخر العهد العثماني أُنشئت في يافا مجموعة كبيرة من المؤسسات والجمعيات الثقافية والأدبية.

من هذه النوادي نذكر النادي الرياضي الإسلامي الذي أقيم في سنة ١٩٢٦، وكان أعضاؤه الفاعلين مسيحيين ومسلمين.[٣٥] وكانت فاعليته في أغلبيتها أدبية، وزاره العديد من شعراء الوطن العربي من العراق ومصر وسورية ولبنان. وفضلاً عن ذلك كان للنادي نشاطات رياضية، وأنشأ فرقاً رياضية أهمها: فريق الملاكمة؛ فريق كرة السلة؛ فريق تنس الطاولة؛ فريق رفع الأثقال؛ فريق البلياردو؛ فريق كرة القدم. وبالمشاركة مع المجلس الإسلامي الأعلى أقام النادي ملعباً صغيراً لكرة القدم بالقرب من مبنى القشلة، وأنشأ لاحقاً ملعباً كبيراً بالمشاركة مع البلدية في "أرض البصة" كان يتسع لعشرة آلاف شخص.

واشتُهر نادي الشبيبة الأورثوذكسية وهو ناد رياضي ثقافي تأسس في سنة ١٩٢٤، وكان له نشاطات عديدة منها المحاضرات الثقافية والأدبية والعروض المسرحية، علاوة على إنشاء العديد من الفرق الرياضية التي مارست نشاطها على مستوى الوطن، ومنها فريق كرة السلة، وفريق تنس الطاولة، وفريق البلياردو، وفريق كرة القدم الذي فاز بلقب بطل أندية فلسطين. وكان للنادي ملعب لكرة القدم بمواصفات عالمية، يسمى ملعب النادي الأورثوذكسي، ويقع بجوار الكلية الأورثوذكسية قرب تلة العرقتنجي. ومن الجمعيات المشهورة كان هناك جمعية الشبان المسلمين، والنادي العربي، ونادي الطلبة، والنادي الأولمبي، ونادي الشباب، والمنتدى الأدبي والعشرات غيرها. وقد اشتُهر العديد من الجمعيات النسائية كجمعية النساء الأورثوذكسية التي تأسست قبل الحرب العالمية الأولى،[٣٦] وجمعية التضامن النسائي التي عنيت بالثقافة عامة، وبتأكيد دور المرأة في المجتمع، وقد استضافت هذه الجمعية العديد من المشاهير من أدباء وكتّاب العالم العربي في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته.[٣٧] وهناك أيضاً جمعية السيدات العربيات[٣٨] التي أسست، فضلاً عن فاعلياتها الأدبية والثقافية، مشغلاً لتعليم الفتيات فن التفصيل والخياطة. واشتُهرت كذلك جمعية النساء الوطنية، وجمعية الرابطة النسائية العربية، والعديد غيرهما.

وفي مجال التمثيل المسرحي ظهر أول المسارح في يافا في أواخر القرن التاسع عشر مثل مسرح الزرافية، ومسرح قهوة البنور، ومسرح الباريزيانا، ومسرح مقهى الحلواني. ومنذ عشرينيات القرن العشرين ظهرت مسارح جديدة شكلت أيضاً دور عرض لأفلام السينما، منها دار سينما

الطوبجي على اسم صاحبها عبد الرحمن الطوبجي. كما أقامت الأندية الثقافية في المدينة مسارح عُرضت فيها المسرحيات والأفلام السينمائية، ومنها مسرح النادي الرياضي، ومسرح النادي العربي. وكان العديد من الفرق المسرحية يقدّم خلال العام موسمين: الصيفي وكان يبدأ في روبين، والشتوي وكان يقدّم في دور المسرح في يافا. وزار العديد من الفرق المسرحية المصرية يافا، وقدّم عروضاً كثيرة على مسارح المدينة.[٣٩] كما اشتُهرت مقاهي يافا بإقامة المسرح فيها كمسرح قهوة أبو شاكوش.

وفي عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، تأسست في يافا مجموعة من دور السينما أهمها وأفخمها سينما الحمراء التي ما زالت عمارتها الجميلة قائمة حتى اليوم. وكانت هذه السينما المكان المفضل للعائلات اليافية. وبرزت دور سينما أُخرى، منها: سينما نبيل؛ سينما أبولو؛ سينما الشرق؛ سينما الرشيد؛ سينما فاروق؛ سينما الصلاحي؛ سينما الطوبجي؛ سينما فنقل؛ سينما عدن.[٤٠]

وأدت يافا دوراً مهماً في مجال الصحافة الفلسطينية، وكانت جريدة "الترقي" أولى الصحف التي صدرت في يافا في سنة ١٩٠٧.[٤١] وفي سنة ١٩٠٨ صدرت مجلة "الأصمعي" وهي مجلة اجتماعية نصف شهرية، كما صدرت جريدة "الاعتدال" في سنة ١٩١٠، وفي السنة نفسها صدرت مجلة "الحرية"، وفي سنة ١٩١١ صدرت جريدة "الأخبار" الأسبوعية. وفي السنة نفسها صدرت أهم الصحف الفلسطينية وهي صحيفة "فلسطين" التي أسسها عيسى العيسى ويوسف العيسى، والتي استمرت في الصدور حتى سنة النكبة، ثم عادت إلى الظهور في سنة ١٩٥٠ في مدينة القدس، ولاحقاً في عمّان. وفي الإجمال صدر في يافا ما بين سنة ١٩١٠ وسنة النكبة نحو ٥٠ صحيفة ومجلة.[٤٢]

ورافق هذه الطفرة في المنشورات الصحافية ظهور مجموعة كبيرة من دور النشر والمطابع الحديثة. ومن هذه المطابع التي عملت في يافا حتى سنة النكبة نذكر: المطبعة الوطنية؛ مطبعة فلسطين؛ مطبعة النصر؛ مطبعة غرابي؛ المطبعة العصرية وغيرها. ووصل عدد المطابع في يافا ما بين سنتَي ١٩١٨ و١٩٤٨ إلى ٣٨ مطبعة ودار نشر.

وترافق هذا كله مع انتشار واسع للمكتبات التي اشتُهر منها المكتبة العصرية، ومكتبة السفري، ومكتبة الطاهر، ومكتبة فلسطين العلمية، والعديد غيرها، كما اشتُهرت مكتبتان عامتان هما مكتبة الخزانة الإسلامية في يافا، ومكتبة خزانة أبو نبّوت التي أسسها أبو نبّوت في الجامع المحمودي.[٤٣]

ولم تكتمل حياة يافا الثقافية النشيطة والحيوية إلاّ بعشرات المقاهي التي استُعملت قاعاتها للعروض الفنية والغنائية. فقد حضر إلى يافا وغنّى على مسارحها كبار مطربي الثلاثينيات والأربعينيات من مصر وغيرها مثل الموسيقار محمد عبد الوهاب والسيدة أم كلثوم ومعظم رموز الغناء والطرب في تلك الفترة. وجمع علي البواب في موسوعته أسماء ٧٥ مقهى عملت في يافا قبل سنة النكبة. وإلى جانب هذا الكم الهائل من المقاهي ظهرت في يافا الملاهي التي قُدمت فيها عروض ترفيهية وغنائية لفرق محلية، وأُخرى جاءت من مصر وسورية ولبنان. ومن أشهر هذه الملاهي نذكر ملهى الظريفية قرب ميدان الساعة، وملهى أبو

شاكوش، وملهى الباريزيانا، وملهى الدلو، وملهى غنطوس، وملهى تاج محل.

خاتمة

توقف نبض الحياة في مدينة يافا وانقطعت عن ماضيها حين احتلتها القوات الإسرائيلية في سنة ١٩٤٨. ونُكبت يافا كباقي فلسطين، وتم هدم الحجر، وقُطعت البيارات، وهُدمت السواقي والنواعير، ولم يعد هناك مَن يُحيي موسم روبين، وإنما جرى تهويده، وأصبحت رمال روبين معسكراً لتدريبات وحدات الجيش الإسرائيلي. لم تبق لا مطابع ولا دور نشر عربية، وهُدمت دور السينما، ولم يبق إلاّ دار سينما الحمراء المصادرة والممنوع استعمالها على مَن استطاع البقاء من أهل يافا.

لقد عملت المؤسسة الصهيونية وبكد لتهويد المكان ومحو ماضيه الزاهر كي يبدو للغريب كأن يافا لم تكن يوماً هناك. ■

المصادر

١ عبد الرحمن الجبرتي، "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" (القاهرة: دار الكتب المصرية، المجلد ٢، ١٩٩٧)، ص ٢٦١. وبشأن عمليات النهب والسلب التي قام بها الفرنسيون، انظر: "سجل محكمة يافا الشرعية"، المجلد ١، ص ١، ٢٣، ٣٩، وغيرها.

٢ "سجل محكمة يافا الشرعية"، المجلد ١٨، ص ١٣٥.

٣ المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ١١٧.

٤ فيما يتعلق بمشاريع أبو نبوت العمرانية، انظر:
Ruba Kan`an, "Jaffa and the Waqf of Muhammad Aga Abu Nabbut (1799-1831)", Ph.D. Thesis, Oxford, 1998.

٥ "سجل محكمة يافا الشرعية"، المجلد ٢، ص ١١٩.

٦ المصدر نفسه، ص ١٥٦.

٧ المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ١٥.

٨ المصدر نفسه، ص ٥٢.

٩ المصدر نفسه، المجلد ٨، ص ٤٤.

١٠ المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٤٦.

١١ علي حسن البواب، "موسوعة يافا الجميلة" (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المجلد ١، ٢٠٠٣)، ص ٢٣٢– ٢٤٢.

١٢ "سجل محكمة يافا الشرعية"، المجلد ١، ص ٢١ ؛ المجلد ٢، ص ٣١، ١٧٩.

١٣ للاستزادة في مجال الاستثمار في زراعة البيارات في فترة أبو نبّوت، انظر: "سجل محكمة يافا الشرعية"، المجلد ٥، ص ١٢٢ ؛ المجلد ٨، ص ١٣٦ ؛ المجلد ١٠، ص ١٦٢.

١٤ المصدر نفسه، المجلد ٩، ص ٧٠.

١٥ المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ١١٠.

١٦ G. Franghia, "Report on Irrigation and Orange Growing at Jaffa," *Great Britain: Foreign Office, Miscellaneous Series, no. 300, Reports on Subjects of General and Commercial Interest*, London ,1893, p. 2.

١٧ Public Record Office (PRO), Foreign Office (F.O) / 78, vol. 1419, Jaffa, 17.5.1856.

١٨ Great Britain, Parliamentary Papers, vol. LXVII, Jerusalem, February 1874; Alexander Schőlch, *Palestine in Transformation, 1856-1882: Studies in Social, Economic and Political Development* (Washington: Institute for Palestine Studies, 1993), p. 92.

١٩ Great Britain, Parliamentary Papers, vol. XC, Beirut, 19 March 1881.

٢٠ Ibid., vol. LXXI, Jaffa, May 1882; W. M. Thomson, *The Land and the Book: or Biblical Illustrations Drawn from the Manners and Customs, the Scenes and Scenery of the Holy Land* (London : T. Nelson, 1901), P. 519.

٢١ Roger Owen, *The Middle East in the World Economy, 1800-1914* (London: Tauris, 1981), p. 178.

٢٢ Schőlch, op.cit., p. 92.

٢٣ Ibid., p 135.

٢٤ Parliamentary Papers, vol. LXI, Jaffa, May 1864; PUBLIC Record Office (PRO), F.O., 78, vol. 1834, Jaffa, 9 November 1864.

٢٥ Schőlch, op.cit., p. 136.

٢٦ أشار جاد جلبار في دراسته المستفيضة عن التجار إلى أنهم استثمروا أموالاً طائلة في وسائط النقل لضمان سيطرتهم على مراحل انتقال البضائع من مكان إلى آخر. لتفصيل الموضوع، انظر: Gad Gilbar, "Muslim Big Merchant-Entrepreneurs of the Middle East, 1860-1914", *Die Welt des Islams*, vol. 43, no.1 (2003), pp. 7-12.

٢٧ Public Record Office (PRO), FO., 78, vol. 1991, Jerusalem, 28 November 1867; Parliamentary Papers, vol. LXVIII, Jerusalem, January 1868.

٢٨ Schőlch, op. cit., p. 138.

٢٩ Public Record Office (PRO), FO., 78, vol. 1419, Jaffa, 17 May 1856; Parliamentary Papers, vol. LXXIV, Jaffa, February 1880.

٣٠ Parliamentary Papers, vol. Lxxiv, Jaffa, February 1880.

٣١ ناحوم كارلنسكي، "ازدهار الحمضيات: استثمار القطاع الخاص في فرع الحمضيات، ١٨٣٩–١٨٩٠" (بالعبرية)، (القدس: ماغنس، ١٩٨١)، ص ١٣٧.

٣٢ Franghia, op.cit.

٣٣ سلوى أبو الجبين، "شهادة طالبة من يافا" (عمّان: دار ورد، ٢٠٠٩)، ص ٢٩.

٣٤ Rema Hammami, "Gender, Nakba and Nation: Palestinian Women's Presence and Absence in the Narration of 1948 Memories", in *Across theWall: Narratives of Israeli-Palestinian History,* edited by Ilan Pappé and Jamil Hilal (London and New York: I.B. Tauris), p. 261.

٣٥ البواب، مصدر سبق ذكره، المجلد ٢، ص ١١٧٩.
٣٦ المصدر نفسه، ص ١١٩٤
٣٧ مجموعة من المؤلفين، "يافا، عطر مدينة" (بيروت: دار الفتى العربي، ١٩٩١)، ص ١٧٩.
٣٨ "الموسوعة الفلسطينية" (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، المجلد ٢، ١٩٩٠)، ص ٢١٦.
٣٩ مجلة "الفلوكة" (عمّان)، العدد ٢٧، كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٦، ص ١٥–٢٥.
٤٠ البواب، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٢٠٥.
٤١ الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ١٣–١٨.
٤٢ يعقوب يهوشوع، "الصحافة العربية الفلسطينية في نهاية عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، ١٩٣٠–١٩٤٨" (شفاعمرو: دار المشرق، ١٩٨٣). انظر أيضاً: محمد سليمان، "تاريخ الصحافة الفلسطينية ١٨٧٦– ١٩٧٦" (رام الله: الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين، ١٩٨٨).
٤٣ الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، المجلد ٤، ص ٢٨٧. انظر أيضاً: يوسف هيكل، "أيام الصبا: صور من الحياة وصفحات من التاريخ" (عمّان: دار الجليل، ١٩٨٨)، ص ١٦١.

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مذكرات محام فلسطيني
حنا ديب نقارة
محامي الأرض والشعب

تحرير
عطا الله سعيد قبطي

٣٨٥ صفحة ١٢ دولاراً

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

دليل إسرائيل العام ـ ٢٠١١

رئيس التحرير
كميل منصور

٨٠٠ صفحة ٢٦ دولاراً